

دور التنغيم في فهم دلالة الجملة في اللغة المنطوقة

أحمد مُجْتَبَى السيد محمد – أستاذ مساعد جامعة سبها – كلية الآداب

The role of intonation in understanding sentence meaning in spoken language

Ahmed Mujtaba Alsayid Mohammed

Abstract:

This research is about an important phonetic phenomenon that is intonation which has an important effect in clarify the sentence meaning in spoken language , intonation depends on vocal tone which comes from speaker to receiver mind in order to understand the meaning according to the tone of speaker , so that the receiver recognize whether a spoken sentence is interrogative or exclamation or other meaning that occur by the tone , that leads to understand the meaning and ,this thing indicates to diversity of language and give a multiple meaning from on word . starting from the vocal tone is the origin of the spoken language .

In this paper will be addressed The phenomenon of intonation According to linguists In ancient and modern with examples to clarify the different meanings those produced by this important phonetic phenomenon.

المُلخَص:

يتناول هذا البحث ظاهرة من أهم الظواهر الصوتية التي لها أكبر الأثر في توجيه المعنى وتوضيح دلالة الجملة في اللغة المنطوقة ؛ فهو يعتمد أساساً على النغمة الصوتية التي يُصدرها المتكلم لإيصال المعلومة إلى ذهن الخاطب الذي يتفاعل مع المعنى، ويفهمه وفقاً لهذه النغمة الصادرة عن المتكلم؛ فيعرف ما إذا كانت الجملة المنطوقة إخباراً، أو استفهاماً، أو تعجباً إلى غير ذلك من المعاني التي تصيغها النغمة فهو يقود إلى فهم المعاني، وتوجيه الدلالة فيدل بذلك على تنوع الأداء في اللغة، وإفادة المعاني المتعددة من المبنى الواحد، ويعتمد التنغيم على الأداء الصوتي باستخدام النغمة انطلاقاً من أن النغمة الصوتية هي أصل اللغة المنطوقة .

وفي هذه الورقة سيتم تناول ظاهرة التنغيم عند اللغويين قديماً وحديثاً، وكيف تم تناولها؟ والحديث عنها مع ذكر أمثلة، وشواهد توضح المعاني المختلفة التي تنتجها هذه الظاهرة الصوتية المهمة.

الكلمات المفتاحية: التنغيم ، المعنى ، اللغة المنطوقة ، ظاهرة صوتية المقدمة:

يُعد التنغيم أحد أهم آليات اللغة المنطوقة التي تعد أصل اللغة؛ فاللغة كانت في بدايتها أصوات وألفاظ قبل تقييدها بالكتابة؛ فكان المتكلم يولد معاني مختلفة باستخدام مقدراته اللغوية مستخدماً طرائق عدة لإفهام المتلقي، ومن ضمن هذه الطرائق: التنغيم؛ فهو يقود إلى فهم المعاني، وتوجيه الدلالة في الجملة فيبدل بذلك على تنوع الأداء في اللغة، وإفادة المعاني المتعددة من المبنى الواحد.

ويعتمد التنغيم على الأداء الصوتي باستخدام النغمة انطلاقاً من أن النغمة الصوتية هي أصل اللغة المنطوقة، ولها الدور الأساسي في بناء الجملة وتوجيه معناها، يقول بن خلدون في هذا الصدد: " فاللغة كما هو معلوم تؤخذ تلقيناً"، ونجده يشير كذلك إلى أهمية التلقي والسماع؛ فيقول: "السمع أبو الملكات اللسانية" (1)، وفي هذه العبارة إشارة واضحة إلى أن اللغة المنطوقة موهبة في القدم، وأنها المرتكز الذي قامت عليه اللغة المكتوبة بعد ذلك.

ولا شك أن هذا الجانب من النظام اللغوي وهو ظاهر التنغيم ودورها في فهم دلالة اللغة المنطوقة لم تحظ بكبير عناية، ولا اهتمام من الباحثين على الرغم من أنها تعد إحدى وسائل إنتاج المعنى وفهم الدلالة فالاهتمام منصرف إلى اللغة المكتوبة، وانطلاقاً من ذلك كان هذا الموضوع: التنغيم ودوره في فهم دلالة الجملة في اللغة المنطوقة.

حيث إنه سيتم فيه دراسة أهمية التنغيم على اعتباره جزءاً لا يتجزأ من النظام اللغوي، وفائدته تكمن في أهميته القصوى في ضبط العلاقة بين ظاهر اللفظ ومضمون القصد مع التعرّيج على الحديث عن مفهوم التنغيم ووظيفته عند اللغويين القدامى والمحدثين.

تمهيد:

التنغيم في اللغة: مشتق من النَّعْم والنغمة يقول ابن منظور "النغمة: جرس الكلمة، وحسن الصوت في القراءة وغيرها، وهو حسن النغمة والجمع نغمٌ وكذلك نغمٌ ، والنغمة الكلام الحسن (2)

أما **التنغيم اصطلاحاً**: فهو تنوع الصوت بين الارتفاع والانخفاض أثناء الكلام نتيجة لتذبذب الوترين الصوتيين؛ فيتولد عن ذلك نغمة موسيقية ، ولهذا يطلق على التنغيم أيضاً موسيقى الكلام (3)

التنغيم في التراث اللغوي العربي:

أثارت مسألة وجود التنغيم في التراث العربي خلافاً كبيراً بين الباحثين المعاصرين؛ فتباينت آراؤهم حول هذا الموضوع؛ فمنهم من يرى أنّ العرب لم يتعرّضوا لهذه الظاهرة، ولم يعيروها أي اهتمام، ولم يشيروا لها في مباحثهم اللغوية على الرغم من أهميتها في دعم التواصل بين المتخاطبين وتوجيه معنى الخطاب ومن ثم الوصول إلى فهم مقصد المتكلم ، ويأتي على رأس هؤلاء المنكرين الذين أنكروا وجود هذه الظاهرة المستشرق الألماني جوتهلف برجشتراسر الذي نفي نفيًا قاطعاً أطراد ظاهرة التنغيم في اللغة العربية وأن علماء العربية لم يشيروا إليها لا من قريب ولا من بعيد؛ فنجدته يقول في كتابه: التطور النحوي للغة العربية : "فنتعجب كلّ العجب من أنّ النحويين والمقرئين القدماء لم يذكروا النغمة ولا الضغط أصلاً" (4)، فهو في هذا النص يجزم بكل ثقة على عدم وجود التنغيم في التراث العربي، ويستدل على ذلك بأنه لم يرد عن علماء اللغة وعلماء القراءات فلو كان موجوداً لأشاروا إليه، وتحدثوا عنه لأهميته في فهم المعاني في اللغة المنطوقة .

ويسير على هذا النهج - أيضا - المستشرق الفرنسي: هنري فليش في كتابه: العربية الفصحى مؤكداً عدم اهتمام اللغويين العرب بالظواهر الصوتية كالنبر والتنغيم؛ حيث إنه ذهب إلى عدم عثوره على تسمية له في التراث العربي (5) متخذاً من ذلك دليلاً على عدم معرفة اللغويين بظاهرة التنغيم ، وقد حذا حذو هؤلاء المستشرقين مجموعة من الباحثين واللغويين العرب الذين تتلمذوا على أيدي لغويين غربيين، ولعل من أبرز هؤلاء اللغويين الدكتور تمام حسان؛ فهو ينفى بشكل قاطع وجود ظاهرة التنغيم في التراث العربي؛ حيث ذهب في كتابه اللغة العربية معناها ومبناها إلى أنّ التنغيم في اللغة العربية الفصحى غير مسجل ولا مدروس، ومن ثم تخضع دراستنا إياه في الوقت الحاضر لضرورة الاعتماد على العادات النطقية في اللهجات العامية (6)

أما الفريق الآخر من العلماء فيرون أنّ اللغويين القدماء أدركوا حقيقة التنغيم ومفهومه وأهميته وإن لم يضعوا له مصطلحاً خاصاً به؛ حيث إنه يمكن القول أن هناك إشارات في مصنفاتهم يبدو فيها أثر واضح للتنغيم، ودلالاته، ومفهومه ، وقد نبّه إلى هذه القضية جماعة من الباحثين اللغويين منهم على سبيل المثال: رمضان عبد التّواب؛

حيث يقول: "إنّ القدماء أشاروا إلى بعض آثار التنغيم ولم يعرفوا كنهه، غير أنّنا لا نعدم عند بعضهم الإشارة إلى بعض آثاره في الكلام للدلالة على المعاني المختلفة" (7) وقد أفرد الدكتور: أحمد كشك في كتابه: "من وظائف الصوت اللغوي" مساحة تناول فيها ظاهرة التنغيم مشيراً إلى أنه ظاهرة نحوية، وله دور ليس بالهين في فهم الأبواب النحوية وبخاصة تلك الأبواب التي تدل على التأثر، والانفعال وما يتصل بالجمال الإنشائية في الدرس النحوي (8)، وقد أشار إلى اطراد ظاهرة التنغيم في كلام العرب، فيقول: "وقد أمدى العرب، وإن لم يربطوا ظاهرة التنغيم بتفسير قضاياهم اللغوية، وهم وإن تاه عنهم تسجيل قواعد لها فإن ذلك لم يمنع من وجود خطرات ذكّية لمّاحة تعطي إحساساً عميقاً بأنّ رفض هذه الظاهرة تماماً أمرٌ غير وارد، وإن لم يكن لها حاكم من القواعد." (9)

وقد أفاض اللغويون المحدثون وأسهبوا في الحديث عن هذه الظاهرة ومدى اهتمام علماء العربية بها فوقعوا في خلاف كبير في هذه المسألة بين وجودها من عدمه. ولكن عند تدقيق النظر في كتب اللغويين المتقدمين نجد إشارات واضحة إلى مسألة التنغيم، وأهميته في التفريق بين المعاني؛ صحيح أنهم لم يضعوا مصطلحاً خاصاً به؛ إلا إنهم تحدثوا عن طريقتهم، وعن دوره في تبيين المعاني، وتوجيه الدلالة، والأمثلة على ذلك كثيرة؛ فإذا تصفحنا كتب الأقدمين بتمعن نجد هذه الظاهرة الصوتية المهمة حاضرة بقوة ومعبرة عن كثير من المعاني ومقاصد المتكلمين؛ فمثلاً في كتاب "الخصائص" لأبي الفتح عثمان بن جني نجد عبارات ونصوص توضح بما لا يدع مجالاً للشك الوظيفة الدلالية التي تؤديها ظاهرة التنغيم وأهميته القصوى في فهم اللغة المنطوقة، يقول ابن جني عندما تعرّض لقضية حذف الصفة في قولهم: (سير عليه ليل): "وقد حُذفت الصفة ودلّت الحال عليها؛ وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم سير عليه ليل وهم يريدون: ليل طويل؛ وكان هذا إنما حذفت فيه الصفة لما دلّ من الحال على موضعها، وذلك أنك تحس في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح، والتفخيم، والتعظيم ما يقوم مقام قوله: طويل أو نحو ذلك. وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملت" (10)، ففي هذا النص إشارة واضحة إلى دور النغمة الصوتية في توجيه المعنى ومعرفة الدلالة؛ فيكون هناك ضغط على كلمة (ليل) ورفع الصوت بها واستطالته.

وفي موضع آخر يصرح ابن جني بشكل واضح عن أهمية النغمة في فهم دلالة الجملة في اللغة المنطوقة فيقول: "كما أنك عندما تمدح إنساناً وتثني عليه تقول: " كان

والله رجلاً! فتزيد في قوة اللفظ ب (الله) هذه الكلمة وتتمكن في تمطيط اللام وإطالة الصوت بها أي: رجلاً فاضلاً، أو شجاعاً، أو كريماً، أو نحو ذلك" (11)

في هذا النص إشارة واضحة وجلية عن أهمية ظاهرة التنغيم في بيان معنى الجملة المنطوقة، وتوجيه دلالتها بما يفي بمقصود المتكلم، ويكفي لإفهام المتلقي؛ فكان رفع الصوت في قوله: (والله) دليلاً على أن المعنى المراد هو صفة ذلك الرجل لا مجرد شخصه، أضف إلى ذلك أن قول ابن جني: (فتزيد في قوة اللفظ) تعطي إشارة واضحة إلى مسالة رفع الكلام وخفضه أثناء نطق الجملة، وهذا بالتحديد ما اصطلح عليها بعد ذلك بالنغمة الصاعدة، والنغمة الهابطة؛ فالنغمة تسمى صاعدة rising tone إذا تم صعودها من أسفل إلى أعلى على المقطع الذي وقع عليه النبر والنغمة الهابطة falling tone إذا تم نزولها من أعلى إلى أسفل على آخر مقطع وقع عليه النبر (12)

وفي السياق نفسه لا بد من الإشارة إلى حادثة لغوية كان للتنغيم دوره الذي لا ينكر فيها في فهم دلالة الجملة؛ وفيها - أيضاً - دليل على إدراك النحاة أهمية التنغيم ووظيفته؛ حيث تروى كتب اللغة في الحدث الكلامي أن هذه الحادثة كانت بين عالمين نحويين كبيرين هما: علي بن حمزة الكسائي واليزيدي؛ حيث عقدا مناظرة بحضور الخليفة العباسي هارون الرشيد تناولا فيه بيت الشعر الذي يقول :

لا يكون العيرُ مهراً لا يكون، المهرُ مهراً

فقد سأل اليزيدي الكسائي عن البيت قائلاً له: هل ترى فيه من عيب؟ فأجاب الكسائي: "قد أقوى الشاعر، لا بدّ أن ينصب المهر الثانية على أنه خبر (كان)؛ فقال اليزيدي: الشعر صحيح إنما ابتداء؛ فقال: المهرُ مهراً، وبهذا المعنى نستنبط أن اليزيدي قد سكت سكتة عند قوله (لا يكون) الثانية، ونطقها بنغمة صاعدة ومنتهياً بنغمة هابطة، ثم ابتداء بقوله: المهر مهراً؛ فقد كان للتنغيم في هذا الموضع دور مهم في فهم دلالة الجملة وتوجيهها نحوياً؛ حيث إن الموقع الإعرابي للكلمة يتوقف على مسالة التنغيم من رفع الصوت وخفضه، وهذه وظيفة أخرى من وظائف هذه الظاهرة الصوتية المهمة.

ونجد في الشعر العربي الكثير من الأبيات الشعرية لا يمكن فهم دلالتها إلا عن طريق التنغيم الذي يمكن من خلاله التفريق بين المعاني وفقاً لغرض المتكلم؛ وذلك من خلال فهم السياق العام للنص، ويمكن أن نورد في هذا الصدد أمثلة كان للتنغيم فيها الدور

الأكبر في إنتاج المعنى وفي توجيه الدلالة، والتعبير عن مقصد المتكلم الأمثلة على ذلك كثيرة، ومن ذلك قول الشاعر:

ورب أسيلة الخدين بكر مهفهفة لها فرع وجيد (13)

بالنظر في السياق نجد أن هناك صفتين محذوفتين لكلمتي: فرع وجيد؛ وذلك في مقام الاطراء بالجمال والحسن؛ فهو يرفع الصوت بكلمتي: فرع وجيد إشارة إلى جمال الشعر وسواده وطول العنق الذي يعد أحد علامات الجمال عند العرب، فلا يقصد الشاعر هنا مطلق الفرع والجيد وإنما يقصد جمال ذلك الفرع وهذا الجيد؛ فيضغط على هاتين الكلمتين رافعاً الصوت بهما ليؤكد هذا المعنى، فلو أنه نطق البيت متساوي النغمة لما كان هناك مزية ولا فائدة بل كان الأمر نوعاً من الاسفاف والابتذال؛ إذ أنه لا فائدة من الإخبار بوجود الفرع والجيد. ومن الأمثلة - أيضاً - على أثر التنغيم في فهم المعنى قول الشاعر:

قالت بنات العم يا سلمى وإن كان فقيراً معدماً قالت وإن (14)

حيث حذف فعل الشرط وجوابه لدلالة سياق الكلام عليهما، ويتطلب ذلك رفع الصوت والضغط على النون من (إن) كي يؤكد المعنى ويدل على المقصود، ويمكن حينها تقدير المحذوف بناء على ما تقدمه من كلام غير أن الحذف والاستعاضة عنه بالتنغيم في هذا الموضوع يزيد في توكيد المعنى وتقويته، ويضيف إليه معنى ودلالة، وتقدير المحذوف هنا: وإن كان فقيراً معدماً؛ أي إن كان كذلك رضيته أيضاً، وهذا يدل على شدة الإصرار على الحدث، والذي أوجب كل ذلك هو النغمة المرتفعة مع النبر الواقع على حرف النون.

التنغيم عند اللغويين المحدثين:

ولا بد من الإشارة في هذا المقام إلى أن من أشهر من أولى التنغيم عنايته واهتمامه ودعا إلى دراسته من اللغويين العرب في العصر الحديث هو الدكتور: إبراهيم أنيس الذي يعد أول من أدخل مصطلح التنغيم في الدراسات اللغوية العربية المعاصرة، وسمّاه (موسيقى الكلام)؛ حيث أشار في كتابه هذا إلى أن التنغيم هو موسيقى الكلام؛ لأنّ الإنسان حين ينطق بجميع الأصوات؛ فالأصوات التي يتكوّن منها المقطع الواحد

قد يختلف في درجة الصّوت، وكذلك الكلمات، وتختلف معاني الكلمات تبعاً لاختلاف درجة الصّوت عند النّطق بالكلمة (15).

وقد أسهب الدكتور تمام حسان في الحديث عن ظاهرة التنغيم، وأشار إلى أهميته ودوره في توضيح معنى الجملة ودلالاتها، فيعرفه بأنّه: "ارتفاع الصوت وانخفاضه أثناء الكلام" (16)، ويؤكد أن الكلام لا يأتي على نمط صوتي واحد بل يرتفع الصوت عند بعض مقاطع الكلام أكثر مما يرتفع عند غيره؛ وذلك ما يعرف باسم التنغيم، ثم نجده يقول في موضع آخر متناولاً مفهوم التنغيم: "هو تغييرات تتتاب صوت المنكّم من صعود وهبوط؛ لبيان مشاعر الفرح، والغضب والإثبات، والتهكم والاستهزاء والاستغراب"، ويشير تمام حسان إلى أنّ التنغيم في الكلام مختص باللغة المنطوقة، ويقابله علامات الترقيم في اللغة المكتوبة غير أنّ التنغيم أوضح من الترقيم في الدلالة على المعنى الوظيفي للجملة" (17).

كما أن التنغيم قد حظي بأهمية كبيرة عند اللسانيين الغربيين؛ فتناولوه من جوانب عدة، وعرفوه بصيغ مختلفة وإن كانت متقاربة في المعنى؛ فيرى ماريو باي أنّ التنغيم هو: "عبارة عن تتابع النغمات الموسيقية، أو النغمات في حدث كلامي معين" (18) ويقول روبنز معرّفاً للتنغيم وموضحاً مفهومه: "تتابعات مطردة من الدرجات الصوتية المختلفة، ويقول دانيال جونز: "يمكن أن يعرف التنغيم بأنه التغيرات التي تطرأ في درجة الصوت أثناء الكلام والتي تحدث نتيجة لاهتزاز الأوتار الصوتية" (19).

ويمكن أن نستنتج من هذا التعريف أن هناك ترابط قوي بين التنغيم والاهتزازات التي تحدث بفعل الأوتار الصوتية، بمعنى أنه كلما كان مستوى الاهتزازات عاليًا وذا سرعة كبيرة كانت التغيرات في النغمات الصوتية أشد وضوحًا، وأكثر تمكنا من الوصول إلى فهم المعنى وإدراك المقصود. وهذا بدوره يؤدي إلى أن كل جملة أو كلمة ينطق بها لا بد أن تخضع لدرجات مختلفة من درجة الصوت، تتراوح بين عالية، ومنخفضة ومستوية، تناسب وتتوافق لتؤدي المعنى المقصود من الكلمة أو الجملة؛ ويمكن القول أن هذه الميزة توجد في جميع اللغات البشرية تقريباً؛ إذ إن كل لغة منطوقة تخضع في كثير من تعبيراتها إلى التغيير في درجة الصوت في الكلمة بهدف توجيه المعنى وتحديد الدلالة؛ إذ أنه من غير الممكن أن توجد لغة تستخدم نغمة مفردة واحدة في جميع أجزاء الجملة.

ونجد في الشعر العربي الكثير من الأبيات الشعرية لا يمكن فهم دلالتها إلا عن طريق التنغيم الذي يمكن من خلاله التفريق بين المعاني وفقاً لغرض

المتكلم وذلك من خلال فهم السياق العام للنص ، ويمكن أن نورد في هذا الصدد أمثلة كان للتنغيم فيها الدور الأكبر في إنتاج المعنى وفي توجيه الدلالة، والتعبير عن مقصد المتكلم الأمثلة على ذلك كثيرة ؛ ومن ذلك قول الشاعر:

ورب أسيلة الخدين بكر مهفهفة لها فرع وجيد (20)

بالنظر في السياق نلاحظ وجود صفتين محذوفتين لكلمتي: فرع وجيد؛ وذلك في مقام الاطراء بالجمال، والحسن؛ فهو يرفع الصوت بكلمتي: فرع وجيد إشارة إلى جمال الشعر وسواده وطول العنق الذي يعد أحد علامات الجمال عند العرب ، فلا يقصد الشاعر هنا مطلق الفرع والجيد، وإنما يقصد جمال ذلك الفرع، وهذا الجيد فيضغط على هاتين الكلمتين رافعاً الصوت بهما ليؤكد هذا المعنى ؛ فلو أنه نطق البيت متساوي النغمة لما كان هناك مزية، ولا فائدة بل كان الأمر نوعاً من الاسفاف والابتذال؛ إذ أنه لا فائدة من الإخبار بوجود الفرع والجيد. ومن الأمثلة أيضاً على أثر التنغيم في فهم المعنى قول الشاعر:

قالت بنات العم يا سلمى وإن كان فقيراً معدما قالت وإن (21)

حيث حذف فعل الشرط وجوابه لدلالة سياق الكلام عليهما، ويتطلب ذلك رفع الصوت والضغط على النون من (إن) كي يؤكد المعنى ويدل على المقصود، ويمكن حينها تقدير المحذوف بناء على ما تقدمه من كلام غير أن الحذف والاستعاضة عنه بالتنغيم في هذا الموضع يزيد في توكيد المعنى وتقويته ويضيف، وتقدير المحذوف هنا، وإن كان فقيراً معدماً؛ أي إن كان كذلك رضيته أيضاً. وهذا يدل على شدة الإصرار على الحدث، والذي أوجب كل ذلك هو النغمة المرتفعة مع النبر الواقع على حرف النون.

الجملة الاستفهامية والتنغيم:

يمكن القول أن باب الاستفهام يعد من أهم الأبواب التي يستخدم فيها التنغيم في تحديد الدلالة المطلوبة من الجملة الاستفهامية، فكثيراً ما يتم الاستعاضة بالنغمة عن النطق بأداة الاستفهام، وهذا أمر شائع مطرد في كلام العرب، وتؤيد ذلك الشواهد الكثيرة التي حذف فيها أداة الاستفهام، وتم اللجوء إلى

استخدام النغمة لتحديد دلالة الجملة وفهم معناها؛ فالتغيرات الصوتية لها أهمية كبيرة في توجيه المعاني اللغوية عامة ومعاني الاستفهام بصفة خاصة؛ وقد أشار أبو الفتح ابن جني إلى هذا الأمر عندما تحدث عن النبر في الاستفهام قائلاً: "لفظ الاستفهام إذا ضامه معنى التعجب استحال خبراً، وذلك قولك: مررت برجل أي رجل. فأنت الآن مخبرٌ بتناهي الرجل في الفضل، ولست مستفهماً (22)

وقد أشار الدكتور تمام حسان إلى هذا الأمر عندما تناول موضوع التنغيم في كتابه: اللغة العربية معناها ومبناها؛ فهو يقول متحدثاً عن التنغيم: "وربما كان له وظيفة نحوية هي تحديد الإثبات والنفي في جملة لم تستعمل فيها أداة الاستفهام؛ فنقول لمن يكلمك ولا تراه: أنت محمدٌ، مقررأ ذلك ومستفهماً عنه، وتختلف طريقة رفع الصوت وخفضه في الإثبات عنها في الاستفهام" (23)، وفي هذا إشارة واضحة إلى أهمية التنغيم في توجيه الدلالة في الجملة الاستفهامية، وذلك عن طريق تغيير نغمة الصوت من منخفضة في حالة الإثبات إلى مرتفعة قليلاً في حالة الاستفهام، وهذا يعتمد على براعة المتكلم، ومقدرته على إيصال المعنى إلى المتلقي عن طريق اللغة المنطوقة التي تعد الأصل والأساس في عملية التواصل بين المتكلمين.

وينحو الدكتور محمد حماسة النحو نفسه في إثبات وتقرير أهمية النغمة في اللغة المنطوقة عام وفي الجملة الاستفهامية على وجه الخصوص فيقول: "يقوم تنغيم الكلام المنطوق بدور دلالي كبير يهدي إلى تفسير الجملة تفسيراً صحيحاً، أو ينوع هذا التفسير مع تنوعه من نغمة الإثبات إلى الاستفهام إلى غير هذا وذلك" (24)

وهذا يعني أن للجملة الاستفهامية نغمة خاصة بها تصاحب كل منطوق من الكلام؛ إذ إن الجملة الواحدة الخالية من الأداة تصلح أن تكون إثباتاً أو استفهماً، والذي يفرق بينهما هو التنغيم الذي يساعد على فهم المعنى المقصود، أما الكلام المكتوب فإنه يفقد خاصية التنغيم؛ ولذا اعتمد على أداة تشير إلى أسلوب الاستفهام، وإذا حذف من التركيب قدرت بفعل القرائن المقالية والمقامية.

ويمكن أن نورد في هذا الصدد بعض الشواهد التي كان للتنغيم دوره الذي لا ينكر في إيضاح الجملة الاستفهامية وتوجيه دلالتها والاعتماد هنا يكون

على رفع الصوت وخفضه عند الكلام؛ فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا
لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنَّ مَتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾ (25) ، فقوله- تعالى- : فهم
الخالدون؛ إنما هي جملة استفهامية حذف منها حرف الاستفهام واستعويض
عنه بنغمة مرتفعة قليلاً؛ إذ إن التقدير: أفهم الخالدون لكون السياق يدل على
معنى استفهامي وليس خبرياً؛ لأن الفرق بين دلالة الاستفهام والخبر تتضح
في النغمة المرتفعة في الاستفهام والمستوية في الخبرية، ومن ذلك أيضاً قول
الشاعر:

شكوت فقالت كلّ هذا تبرما بحبي أراح الله قلبك من حبي (26)

فقوله: كل هذا تبرما هي جملة استفهامية حسب سياق الكلام وإن كانت خالية
من الأداة إلا إنها تتضمن سؤالاً يتطلب إجابة من المخاطب؛ فالسؤال يتسم
بنبرة تنغيمية تحوي نغمة مرتفعة قليلاً، فإن المتكلم لم يرد أن يلقي إلى
المتلقي خبراً، وإنما أراد أن يستفهم عن سبب الشكوى؛ فلجأ إلى استخدام
النغمة، ويمكن أن نقدر الكلام بقولنا: أكل هذا تبرماً.

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن النحويين قد أجمعوا على أن همزة
الاستفهام هي الحرف الوحيد الذي يجوز حذفه في الجملة الاستفهامية؛ إذ إنه
لا يُقدَّر عند الحذف سواها، فقد جعلها ابن هشام أصل أدوات الاستفهام
وخصها بأحكام تتميز بها عن قريناتها من أدوات الاستفهام (27)
ومن الأمثلة كذلك على ورود الاستفهام عن طريق التنغيم قول الشاعر:

ثم قالوا تحبها قلت بهراً عدد النجم والحصى والتراب (28)

قوله: تحبها، جملة استفهامية حسب سياق الكلام وإن كانت خالية من الأداة إلا
إنها تتضمن سؤالاً يتطلب إجابة من المخاطب، فالسؤال يتسم بنبرة تنغيمية
تحوي نوعاً من العتاب الرقيق؛ فقد أغنت النغمة في (تحبها) عن أداة
الاستفهام الهمزة وعض عن ذلك بعلامة الاستفهام ولم يتأثر المعنى.
ومن الأمثلة كذلك على استخدام التنغيم في فهم دلالة الاستفهام قول الشاعر

أحيا وأيسر ما قاسيت ما قتلا والبين جار على ضعفي وما عدلا (29)

أي: أحميا ، فحذف الشاعر في هذا الموضع همزة الاستفهام مستعيضا بالنبرة التنغيمية الصاعدة قليلا والتي تدل على أن الجملة استفهامية وليست خبرية ، كما أن سياق الكلام يقتضي أن يكون استفهاما. ولهذا فالمتلقي يستقبل المعنى وفقا لنوع النغمة. ومنها كذلك قول الشاعر:

كم عمّة لك يا جرير وخالة فدعاء قد حلبت عليّ عشاري (30)

فدلالة التنغيم تظهر في الجمل المنطوقة (فكم) تكون استفهامية، وتكون خبرية، والذي يحدد ذلك هو النغمات الصوتية التي يتم بها الأداء، وبيت الشاعر خير مثال على ذلك فهو في هذا البيت يستخدم نغمة مرتفعة تتضمن معنى التأكيد، فإذا غير النغمة وهبط بها قليلا فإن المعنى ينصرف إلى الاستفهام. والشواهد على ذلك كثيرة في أشعار العرب فهم يستخدمون النغمة كثيرا للتعبير عن معنى الاستفهام وذلك برفع الصوت في موضع الاستفهام بنبرة تثير التساؤل عن وقوع الحدث.

الخاتمة:

- 1- يعد التنغيم ظاهرة من أهم الظواهر الصوتية التي تسهم في بناء الجملة في اللغة المنطوقة، وتوجيه دلالتها ومعناها.
- 2- النغمة الصوتية الصادرة من المتكلم يبنّي عليه فهم المقصود من جانب المتلقي فيتم التفاعل بين طرفي الخطاب وفقا لهذا الفهم.
- 3- التنغيم، يقود إلى فهم المعاني، وتوجيه الدلالة في الجملة فيدل بذلك على تنوع الأداء في اللغة، وإفادة المعاني المتعدّدة من المبنى الواحد.
- 4- الجملة الواحدة قد ينتوع معناها بتنوع صور نطقها وكيفية التنوع في موسيقاها.
- 5- من أهم الوظائف النحوية للتنغيم دوره في تصنيف الجمل إلى أنماطها المختلفة من تقريرية واستفهامية وتعجبية وكل جملة لها نمط خاص من التنغيم.

الهوامش:

- 1- عبد الرحمن ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون، دار القلم ، بيروت -لبنان ، ط4، 1981، ص546.
- 2- محمد بن مكرم ابن منظور : لسان العرب ، اعتنى بتصحيحه : أمين محمد عبد الوهاب، محمد الصادق العبيدي ، دار إحياء التراث بيروت- لبنان، ط3، 1999، مادة: نغم 590/12
- 3- كمال بشر ، علم الأصوات ، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة ، 2000، ص533.
- 4 -برجشتراسر، التطور النحوي للغة العربية ، ترجمة : دكتور. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط1، 1994ص72.
- 5 ، هنري فليش، العربية الفصحى نحو بناء لغوي جديد ،ترجمة وتحقيق: عبد الصبور شاهين، دار المشرق بيروت- لبنان، ط1 1983، ص49.
- 6-تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، مكتبة الأدب-القاهرة 1994، ص 228.
- 7-رمضان عبد التواب المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2 1985م، ص 106.
- 8- أحمد عبد العزيز كشك من وظائف الصوت اللغوي، محاولة لفهم صرفي ونحوي ودلالي، ، دار غريب للطباعة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2007، ص59.
- 9-من وظائف الصوت اللغوي، ص52.
- 10 - أبو الفتح عثمان بن جني ، الخصائص ، تحقيق : محمد علي النجار ، بيروت ، عالم الكتب 371- 370/2 .
- 11 - المصدر نفسه ، 371/2.
- 12 خليل إبراهيم العطية ، في البحث الصوتي عند العرب ، منشورات دار الجاحظ، بغداد – العراق ، 1983، ص63
- 13- البيت للمرقش الأكبر ، ينظر: ديوان المرقشين ، تح: كارين صادر، دار صادر ، بيروت – لبنان، ط1، 1998 ، ص52.
- 14 - البيت لرؤبة بن العجاج ، ينظر: الديوان ، تح: وليم بن الورد البروسي، دار قتيبية للنشر والطباعة ، الكويت ، ص186
- 15-إبراهيم أنيس الأصوات اللغوية، ، دار النهضة العربية، القاهرة، 1961 م، ص 124.
- 16-تمام حسان مناهج البحث في اللغة، د. ، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ، ص164.
- 17-تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص226.
- 18-ماريو باي، أسس علم اللغة، ترجمة: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط8، 1998، ص 93.
- 19 -An Outline of English Phonetics, Daniel Jones, G.E stechert & co,New york 1922, p.135.
- 20- البيت للمرقش الأكبر ، ينظر: ديوان المرقشين ، تح: كارين صادر، دار صادر ، بيروت – لبنان، ط1، 1998 ، ص52.
- 21- البيت لرؤبة بن العجاج ، ينظر: الديوان ، تح: وليم بن الورد البروسي، دار قتيبية للنشر والطباعة ، الكويت ، ص186
- 22-ابن جني، الخصائص، ص269/3.
- 23-د. تمام حسان، مناهج البحث ، ص164.

- 24- محمد حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، دار الشروق ، القاهرة ، ط1، 2000 ، ص 117 .
- 25 -سورة الأنبياء: الآية 34 .
- 26 - نسبت معظم المصادر هذا البيت إلى أحد الإعراب.
- 27- ينظر: محمد بن هشام الأنصاري مغني اللبيب عن كتب الأعراب ،تحقيق وشرح :د. عبد اللطيف محمد الخطيب، الكويت ، ط2000،1، 75/1.
- 28 - البيت لعمر بن أبي ربيعة ، ينظر: الديوان ، دار القلم ، بيروت- لبنان، ص30.
- 29- البيت لأبي الطيب المتنبي ، ينظر: الديوان ، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، 1983م ،ص17.
- 30- البيت للفرزدق، ينظر الديوان، شرحه وضبطه: علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان ، ط1، 1987، ص31.